

هروب القصر من المراكز : دراسة في الظروف والأسباب

محمد بن شعبي ،

أستاذ مساعد (أ) ، قسم العلوم الإنسانية ، جامعة عبدالحميد بن باديس مستغانم

فاطمة بوطرفة غلام الله ،

أستاذة مساعدة (ب) ، قسم العلوم الاجتماعية ، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

هنالك العديد من السلوكيات التي يرتكبها الطفل والتي تُعتبر كتمرد ورفض لواقع ما، سواء في الأسرة أو في المدرسة أو في الشارع أو في أي فضاء اجتماعي آخر ، لكن رغم هذا يظل طفلا بحكم ابتعاده عن النضج المتعدد النواحي كما يحتاج إلى الرعاية و الحماية رغم إساءته أيضا وفي كل الظروف .

سنعالج في هذه الورقات البحثية إحدى المواضيع ذات علاقة بعيش الطفل في المراكز أو المؤسسات (الحماية، إعادة التربية) وهو الموضوع الخاص **بهروب الطفل من المؤسسة (fugue)** أو مشكل الهروب، كإشارة فقط هذا العمل ثمرة جهد ميداني بحكم اهتمامنا بالجنوح و حياة المؤسسة وأيضا ظروف التكفل بها. كون هذا الموضوع متعدد الجوانب ومتنوع المداخل إذ نجد الفاعل أو الجانح يمر بعدة محطات فمثلا من الأسرة إلى الشارع ثم المركز ليبقى المسار الموالي غير معلوم بصفة نهائية خاصة حين الهرب من المؤسسة أو المركز. ومن هنا نطرح الإشكالية التالية: **يعيش معظم أطفال المؤسسة نفس الظروف تقريبا، لكن لماذا يهرب حدث ويبقى آخر ؟**

لما يمارس أي حدث أو قاصر هذا السلوك فهذا في حد ذاته يعتبر جنحة، أو فعل مخالف للقانون، وبالتالي هو طفل جانح " إذ هو ذلك الحدث الذي يقتربُ بعض الأفعال المخالفة لأحكام القانون.. والجنوح عادة ما يكون نتيجة للاضطرابات التي تصيب الجانح من محيطه الذي يعيش فيه كالإهمال من قبل الكبار أو حالات الانفصال الأسري أو الطلاق عند الوالدين "(1)

وعليه فعند هروب الحدث من المركز نجدّه قد وقع في الجنوح تارة أخرى، هذا إن لم يبق بفعل آخر يندرج تحت نفس الإطار كالتسول أو الشجار وغيرها من السلوكيات التي تعتبر جنحة بالمفهوم القانوني الخاص بفترة القصر. كما تقر بعض الجهات المختصة في هذا المجال من مُربين وقاضي الأحداث (les éducateurs et le juge des mineurs) أن للهروب عدة أسباب سوف نذكرها انطلاقا من عمل ميداني قمنا به على شكل مقابلات أجريت مع هؤلاء المربين الذين يشرفون على الأحداث، لأنه بإمكان هذا الفئة أن تُزيف الحقائق وتقدم معلومات لا أساس لها في الواقع . خاصة إذا تعلق الأمر بهروب الحدث أو القاصر من أجل ممارسة سلوك محضور أو مشين والذي يعتبر مُروق عن القيم والمعايير الاجتماعية والذي يعود بالضرر على نفسه وغيره .

ولما نتحدث عن الجنوح نشير بطبيعة الحال إلى مفهوم آخر لصيق به وهو ما يعرف بالشخصية الجانحة " إذ اهتم العلماء بوضع مفهوم للشخصية الجانحة ، ففي الأول اهتم الأطباء بالجنوح وعبروا عنه بتفسير بيولوجي مع نهاية القرن 18 وبفضل الاختبار الدقيق للجمجمة، حدّد الأطباء تواجد أو غياب بعض الانحناءات في الجمجمة عند الأشخاص الجانحين مثل أبحاث Gall في 1908 ، كما أنّ Voisin و L'auvergne تجرّأ من خلال أبحاثهما على إبراز التشابه بين الطبع والتمثيل الخارجي للجمجمة ، فُقبحتهُ وتوحشهُ راجع لتوحش وحيوانية فعله.. ثم تطورت الأبحاث خاصة تلك التي قام بها - لومبروز - والتي أثبتت من خلالها ما يعرف بالشذوذ البيولوجي للمجرم (هو فعل موروث من الأسلاف) ثم توجه أيضا عدداً آخر من الباحثين إلى افتراض أن للمجرم مميزات هرمونية خاصة تتمثل في ارتفاع نسبة التيسْتوستيرون عند المجرم "(2)

لكن وكما يعلم المشتغلين في هذا الحقل العلمي أن عوامل الجريمة والجنوح ليست وحدها ذات علاقة بالجانب الوراثي أو التكويني، لكن هنالك عوامل فعالة ذات علاقة بالوسط الاجتماعي في حد ذاته كالأسرة المتصدعة و المفككة ، السكن في منطقة تغيب فيها أدنى ظروف الحياة الكريمة وكثيرة الانحرافات، ما يوَلِّدُ غَيْشُو أخلاقي إن صحَّ القول . أيضا يمكننا إرجاعه إلى جماعة الأقران (groupe de pairs) التي يصحبها الحدث أو يصاحبها وكما قيل في هذا السياق: صاحب صاحب . هشاشة الحياة الناجمة عن الفقر ، مرض أحد الأولياء ، دون أن ننسى أيضا التفكك الأسري الناجم عن الطلاق أو موت أحد الوالدين أو كلاهما، كذلك فشل الكفالة أو موت

الكفيل ... هذه كلها عوامل تؤثر لا محالة على شخصية الطفل والتي قد تكون إحداها أو بعضها سبب فعل الجنوح قبل دخول المركز، أحيانا في المركز، أحيانا أخرى بعد الخروج منه. أي قبل أثناء وبعد. هذا الخروج من المركز يكون إما بطريقة شرعية (تسليم الحدث لأهله) وإما بطريقة غير شرعية (الهروب). وبالتالي الانتقال إلى الفعل مرة ثانية أو حتى ثالثة أو ما يسمى بحالة العود إلى الجنوح و إتباع نفس المسار الذي كان عليه، ما يدل على فشل أو خلل في إحدى الأركان الثلاث إِمَّا على مستوى الحدث أو القاصر وإِمَّا على مستوى المركز وإِمَّا على مستوى أسرة هذا الطفل، ليبقى التساؤل مطروحا حول ذات الموضوع: لماذا الهروب؟ أو ما هي الأسباب التي تجعل من الحدث يغادر المركز بهذه الطريقة؟

قبل التفصيل في هذه الأسباب لا بأس أن نشير ولو بصورة بسيطة إلى بعض الأسباب التي دفعت بالطفل إلى مغادرة الوسط العائلي والتوجه إلى الشارع والتي من ضمنها ما يسمى بظاهرة العنف الأسري الذي تكثر فيه المشاكل أو كما يسمى ببيت الشقاق، ومن تم الحديث عن الطفل المعنّف، أيضا قد يكون إعادة الزواج من طرف أحد الوالدين أو الاثنتين معا سببا في ذلك حيث يفقد الطفل مكانته بينهما وحتى هويته، أيضا الفقر المدقع وتردي المستوى المعيشي مع ضيق السكن وكثرة أفراد العائلة الواحدة، كذلك الأخلاق المتردية لأحد الوالدين كإدمان الأب على شرب الخمر ولعب القمار وأخيرا سببا آخر والمتمثل في الفشل الدراسي وبالتالي يهرب الطفل ويتعد عن البيت العائلي خوفا من العقاب وسوء المعاملة المادي كالمضرب أو حتى المعنوي كنعته بصفات ومسميات بعض الحيوانات كأن يقول أحد الوالدين للابن: حمار، بغل... وإن كانت فتاة فيقال لها بقرة، حلوفة... وهذا واقع معاش تعرفه كل عائلة جزائرية، حيث هذين النوعين من سوء المعاملة يوقع أثرا بليغا في نفسية الطفل ويجعله يحقد إِمَّا على الوالدين وإِمَّا على الوسط المدرسي بما فيه من مؤثرين وأساتذة أو حتى الجهاز التربوي ككل.

نأتي الآن إلى لب الموضوع أو ذكر العوامل التي تدفع بالحدث إلى الهروب من المؤسسة التي وضع فيها بطريقة قانونية وشرعية من طرف قاضي الأحداث (طبقا للمادة 02 من الأمر 73-3).

على رأس هذه الأسباب نجد الاشتياق والرغبة لحياة الحرية من دون رقابة، حيث الحرية التامة في القيام بالعديد من الأفعال من دون قيود، أو قيد والدي أو أية سلطة أخرى تملّي عليه القوانين والنظام لأن الشارع يعتبر مكسبا لهؤلاء الأطفال الذين يميلون إلى حياة الحرية واللارقابة. حيث التسول، العمل غير المشروع، النشل والتحايل وغيرها من الأفعال التي تعود الحدث على القيام بمثلها. إن رفضهم لحياة المركز أو المؤسسة متجسد داخل جدرانها. إذ من حين لآخر كنا نقرأ كتابات جدارية (داخل غرفة التّوم) ك: *vive la liberté*، قولوا لمّي ما تبكيش... في حقيقة الأمر هي ليست بالكتابات الحائطية فقط بل عبارة عن نصوص تحتاج إلى قراءة وتأويل سوسولوجي بالإضافة إلى رسومات أخرى لبعض الرموز كالصليب المعقوف والرمز المناهض للعنصرية والخاص ببعض الفئات الشبانية كفتة الهيب هوب، أحيانا أخرى هذا النوع من التعبير يصل إلى درجة الوشم على الذراع أو أطراف اليد كتعبير لهذا الواقع المعاش الذي يخاله الحدث واقعا مغلقا ويحدّ من كل مسألة ذات علاقة بالحرية، هذه المراكز حسب تمثلاتهم شبيهة ب L'Asile الذي تحدث عنه الباحث E. Goffman (3)

من بين الأسباب التي تجعل الحدث يرفض هذا الأسلوب من الحياة وينفر منه عدم التأقلم - خاصة في الأيام الأولى - إذ يجد صعوبة تجاه هذا الوضع الجديد والذي يختلف عن عيش الأسرة أو حتى الشارع في حد ذاته وبالتالي نظرا لتعوده (Habitus) ممارسة ما يحلو له يجعله يواجه صعوبات جمّة من أجل التعود على حياة المركز.

أيضا لما نتحدث عن عدم التأقلم فهذا معناه أن ذلك القاصر في تلك الفترة يتعرف على آخرين من أقرانه يحملون عقليات مختلفة لعقليته، وأحيانا حتى اللهجة التي يوظفونها من أجل التواصل فيما بينهم، مما يعرض البعض منهم إلى السخرية والاحتقار. أيضا من بين الأسباب التي تدفع بالحدث إلى الهروب، طول الوضع بالمركز مثلا ستة أشهر، سنة، سنتين إلى أن يبلغ سن النضج القانوني آنذاك يتم تسريحه عن طريق ما يسمى برفع اليد.

إن طول مدة الوضع يؤلّد الروتين الناجم عنه الملل، إذ تقريبا نفس النشاطات التعليمية والترفيهية وكذا الرياضية تتكرر طيلة أيام الأسبوع، كما تتكرر في المناسبات الدينية والوطنية، مما يجعله يضيق درعا من الحياة اليومية التي يشبهها الكثير منهم بالنسخة طبق الأصل والمتكررة صباح مساء.

كذلك من مسببات الهروب تدبب الزيارات العائلية وأحيانا أخرى انقطاعها، وهذا راجع إلى العديد من الأسباب والقناعات. إذ من جهة ترى بعض العائلات وضع الابن بالمؤسسة من أحسن الحلول كي يتخلصوا منه ومن متاعبه، عائلات أخرى ترى أو تنظر إلى الموضوع على أساس انه الحل المثالي كي يتلقى تنشئة جديدة تصلح من أمره. لدى قلنا التمثلات تختلف من عائلة لأخرى، كذلك سبب انقطاع زيارة الوالد أو الوالدة أو أحد أقارب الحدث قد يعود لدى بعض الحالات إلى الفقر أو قلة ذات اليد، كون الطفل يحتاج إلى بعض الحاجات منها الضروري ومنها ما هو كمالي، التي تعجز العائلة توفيرها له، أما عائلات أخرى فتفسر انقطاع الزيارات إلى بعد المسافة، إذ السفر إلى بلد تواجد الحدث يكلف حصة من المال والتي قد يستغلها الأب أو الأم لسد حاجيات إخوته في المنزل، إذ لماما ما نجد الأب يمارس عملا ذو دخل متوسط وأحيانا أخرى دخلا محترما أو كبيرا .

من الأسباب التي تساعد الحدث المقيم بالمركز على التفكير في محاولة الهروب أو الهرب في حد ذاته، تلك الضغوطات الممارسة من طرفين أو من جانبيين الجانب الأول من طرف أقرانه بالمركز حيث السخرية، الاحتقار، الضرب واتهامه بسلوكيات لا أخلاقية كالسرقة، والشذوذ الجنسي، عدم الاعتناء بالمظهر وغيرها من السلوكيات التي لا يرضى بها .

أما الجانب الثاني فعادة ما يكون من طرف المربين في حد ذاتهم، كون مهامهم الأولى هي الحفاظ على صحة وأمن واستقرار هؤلاء الأحداث وفق قانون داخلي وحين تتمرّد أحدهم يتعرض بطبيعة الحال إلى العقاب (الضرب حين مخالفة النظام العام أو التقليل من الاحترام أو محاولة إهانة المربي و التعدي عليه) في مثل هذه الحالات وأخرى وكما اشترنا يتعرض القاصر إلى الضرب لكن كآخر حل . ذات مرة طرحنا سؤالاً على أحد المربين المشرفين على إحدى الورشات السؤال التالي: كيف حالكم مع les enfants فأجاب قائلاً هؤلاء ليسوا Des enfants هؤلاء Des enfous أي حمقى، هذا ما يبرز ويوضح حالة الاستياء التي تنتاب المربي من حين لآخر. إلى جانب العقاب المتجسد في الضرب، هناك أيضا عاملا آخر يكون من حين إلى آخر سببا في الهروب والمتمثل في إهانة المربي للمتربص (les insultes) " إذ تأتي إساءة المربين لهؤلاء الأحداث داخل المراكز في المرتبة الثالثة (49) بعد الأم (83) والأصدقاء (59) (4)

سبب آخر من الأسباب التي تسبّب من هرب الحدث من مؤسسة الحماية والتكفل وهو الخاص بفتة وليس جلمهم، هي الفتة المسماة بالشاذة جنسيا أو الممارسة للشذوذ الجنسي (توأم الزنا) أو ما يعرف باللواط لدى الذكور والسحاق لدى الإناث. وهذا ما يسمّى بالمتبلية الجنسية أيضا (L'homosexualité) إن الطفل في مراحل الأولى لا يفرق بين الجنسين فالأمر عنده يشبه كل الأشياء أو الجمادات، أمّا رغبته الجنسية الأولى بالمفهوم المصغر فكان يجدها عند الأم حين الرضاعة الطبيعية (l'allaitement) لكن بعد أن يقترب من مرحلة النضج وكنمهيد للمرحلة القابلة يستطيع التفريق بين اللذة الموجودة عند الآخر والتي تمثلها الأنثى بامتياز، هذا في حالة النمو الجنسي السليم، أما في حالة وجود انقسام في الهوية الجنسية كحالة بانثولوجية، فإنه يلجأ إلى البحث عن هذه الغريزة أو اللذة وإشباعها عند نفس الطرف من بني جنسه والتعود عليها إلى درجة الإدمان بمقابل مادي كالمال أو من دون مقابل .

بالربط مع موضوعنا المعالج فهناك فتة من هؤلاء القصر يجدون صعوبة في التأقلم مع هذا الوسط وبالتالي يحاولون الهروب منه قصد إشباع هذه الرغبة الجامحة خارج المركز والعودة إلى هؤلاء الرفقة من الذين يشتركون ويشاركونه نفس الفعل - الشواذ - .

قد تكون لممارسة هذا السلوك عدة أسباب البعض منها ما هو نفس وبعضها الآخر ذو علاقة مع ما هو اجتماعي. كما قال - هنري فالون - "إن الفرد هو كل بيو سيكو اجتماعي"⁽⁵⁾ أي الواحد منا له عدة مكونات منها البيولوجي، الاجتماعي وكذا النفسي . هذه الأبعاد الثلاث عبارة عن حتميات موجودة في أي تكوين إنساني وبالتالي وراء كل فعل أو سلوك مسببات أو دوافع إمّا من أجل سد حاجات بيولوجية أو اجتماعية أو نفسية، قصد ضمان توازن الحياة .

سبب آخر وأخير متعلق بذات الموضوع، وهو الخاص هذه المرة أيضا بفتة من القصر وليس جلهم، كونهم من جنسيات أخرى والمتواجدين على التراب الوطني بطريقة غير شرعية ومن دون مرافق (nom accompagnés) أو ما يسمون " بأطفال الحرقه " ونخص بالذكر الأطفال المغاربة (le Maroc) أين أصبحنا نعرف مثل هذا النوع من الظواهر الجديدة وهي ظاهرة حضور أو تواجد الطفل والمراهق من دون وثائق ومن دون عائلة. لكن لماذا الأطفال القادمين من المغرب والمتواجدين بالغرب الجزائري (تلمسان، وهران، عين تموشنت، مستغانم، معسكر، سيدي بلعباس) وهذا بحكم سهولة العبور من المغرب إلى هذه المدن عبر ممر " أحفير " كنقطة التقاء بين الجزائر و المغرب ، إذ يتواجدون بالمدن الجزائرية ليس من أجل السفر أو الاستجمام أو التنزه لكن قصد ممارسة بعض الأعمال والحرف خاصة زخرفة البيوت الفخمة، المساجد ...

كما سبق وذكرنا تواجدهم في البلد يبقى بطريقة غير شرعية بالإضافة أنّها ظاهرة جديدة نوعا ما، نظرا للظروف التي يملئها عليهم بلدهم الأصلي من حالة الفقر والتدهور المعيشي أين تشكل لهم بعض البلدان العربية مصدرا للرزق، إذ كان بروز هذه الظاهرة بامتياز بدءًا بسنوات الألفية (2000). هذا راجع لعودة ظروف الأمن و الاستقرار بالجزائر، لكن تبقى هذه المحاولات وهذه الأحلام يحيطها الكثير من المخاطر والمخاوف، إذ يجد ذلك الطفل نفسه في مواجهة واقع يسمّى: إلقاء القبض ومن تم يُحال مباشرة إلى مثل هذه المؤسسات (C.S.P) بعد فتح ملف تحقيق على مستوى الأمن أو الدرك و بعدها قاضي الأحداث المكلف بهذه القضايا. وعليه عدم تأقلم القاصر الهارب من بلده وتواجده بالمؤسسة لبضعة أشهر يتم تسليمه إلى السلطات التابع لها.

ظروف الوضع بالمؤسسة والانتظار يشعره بعدم التأقلم، أحيانا حتى من حيث اللغة - اللهجة المستعملة - من طرف الأحداث والمربين، وعليه حالة الحرج هذه الناجمة عن رفض هذا الواقع يدفع بهذا الحدث إلى التفكير في الهرب أو الهروب من المركز والعودة إلى البلد الأصلي.

خلاصة:

يعتبر مشكل الهروب حالة من حالات رفض القاصر للواقع المعاش. سواءا من الأسرة أو المدرسة أو المركز، وقد يكون نتيجة لقلق داخلي أو هاجس نفسي أدى به إلى القيام بهذا السلوك تعبيرا عن فقدان التوازن بينه وبين المحيط الذي يعيش فيه. وقد تلعب العوامل الاجتماعية و البيئة دون نسيان عامل الزمن، دورا أساسيا في مساعدة القاصر الجانح في ارتكاب هذا الفعل الذي يعتبر كرد فعل للضغوطات والمشاكل التي يتخبط فيها وبالتالي صعوبة إيجاد حلول لها .

من بين أهداف هذه الدراسة، معرفة أسباب الهروب لدى هذه الفتة. إذ توصلنا من خلال هذا العمل الميداني أن الطفل أو المراهق الجانح في بحث مستمر عن توازن جديد الذي يتم أحيانا عن طريق الهروب الذي يعتبره كقوة يستند إليها، ومهما تعددت مستويات التحليل و البحث في هذا الموضوع فإننا نلاحظ تغيرات وتحولات مهمة تحدث خلال سيرورة هذا الفعل خاصة من ناحية التكفل الاجتماعي بالمراكز المتخصصة .

وكخلاصة لهذا الطرح، يجب ربط هذا المشكل بمكونات تفاعل هذا الجانح داخل المجتمع و النظر إلى الواقع الذي يؤدي به إلى ارتكاب هذا السلوك و محاولة توجيهه نحو المسار السليم.

اقتراحات:

من النتائج السابقة توصي الدراسة بما يلي:

- 1- العمل على توطيد العلاقة الاجتماعية للجانح في مختلف المؤسسات الاجتماعية والتي على رأسها الأسرة، المدرسة والمجتمع.
- 2- البحث والكشف في جملة الصراعات النفسية و الاجتماعية التي يعاني منها القاصر الجانح.
- 3- تحسيس الأسرة بماهية فترات النمو كالمراهقة التي ينعتها بعض الأولياء بحالة أزمة و التحسيس أيضا بالمعاش النفسي للجانحين.
- 4- تحسين التكفل النفسي و الاجتماعي لدى القصر بمراكز الحماية و إعادة التربية.
- 5- المراقبة الشديدة والسليمة للقصر الجانحين بعد خروجهم من هذه المراكز و المؤسسات.

6-التوعية الإعلامية بضرورة الاهتمام بفئة الجانحين وعدم تهيمشها أو النظر إليها على أنها فئة شاذة و مخالفة للفضائل الأخلاقية،أو خارجون عن القانون حسب تسمية السوسولوجي هوارد بكر .

الهوامش :

1. عُمر عمتور ، "موسوعة المصطلحات القانونية و قواعد الشريعة الإسلامية" ، دار هومه للطباعة والنشر ، الجزائر ، 2012، ص.281.
2. سجيدة لزرقي ، " التنشئة الاجتماعية الوالدية وجنوح الأحداث ، دراسة منجزة بالمركز المتخصص في إعادة التربية بحاسي دحو ولاية سيدي بلعباس " مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم النفس العيادي ، جامعة وهران، 2012-2013،ص.ص 106.105
3. Erving Goffman . "Etude de la condition sociale des malades mentaux". Minit.Paris.1968.
4. Badra Moutassem – Mimouni et al, " Mineur en Garde judiciaire : Quelle prise en charge institutionnelle" P N R 31 ? CRASC, 2014, p66.
5. بدرة معتصم ميموني ، مصطفى ميموني ، " سيكولوجية النمو في الطفولة والمراهقة " ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010، ص21.